تاريخ الحرير في بلاد الشام

للسيو غستون دوكوسّو المنوط بقنصلية فرنسة الفخيمة في بيروت (تتمّة)

وفي القرن السادس عشر دخلت تجارة الحرير الشامية في دور جديد فصار اهل صيدا وبيروت يصدرون الى الخارج محصول القزّ قبل اصلاحه وغزله. قال الكافليار دارفيو قنصل فرنسة في حلب وصيدا في كتاب مذكراته (Mémoires du Che-valier d'Arvieux) سنة ١٦٦٠: «ان تجارة الحرير في بيروت قائمة على ساق فانّ قوافل دمشق وحلب ومصر تتردد اليها حيناً بعد آخر ولا سيما في أبان قطف الحرير فيتموّنون منهُ الكميّات الوافرة لعامل الاطلس والمخمل والاقمشة الأخرى التي في جهاتهم.. وللفرنسويين في بيروت اربعة او خمسة من العمّال فقط تحت نظارة تجار دولتهم في صيدا الّا انهم يعرفون احسن من سواهم ما يختصّ بصناعة الحرير نظرًا لاقامتهم في بيروت طول السنة فيستحضرون منهُ افضل الاجناس وابدعها على خلاف التجار الغرباء الذين لا يستوطنون بيروت فانهم اذا حلّوها لبثوا فيها زمناً قصيرًا وابتاعوا ما حضر من الحرائر مدّة حلولهم الموقت انلّا يتأخروا عن الرحيل مع القوافل اذ لا يمكنهم الرجوع وحدهم خوفاً من شذّاذ العربان المتلصّصين»

ومما اخبرهُ هناك ان الزبائن كانوا يقبلون على حرير لبنان ويعلون قدرهُ. وكان اهل كسروان يصدرون كميات وافرة من الحرير الخام الاصفر ومنهُ شكل آخر اغلظ شبيه باونيه كانوا يقطفونهُ في اقليم الشوف ويتخذونهُ لصنع المخمل. امّا حرائر طرابلس فكانت بيضاء ناصعة وراجحة الوزن فكانوا يبتاعونها ببالغ طيبة ويستعملونها للانسجة المزركشة بالذهب والفضة. وكان الحرير البيروتي يُعتبر خصوصاً لتانيته فيصطنعون منهُ الانسجة الدقيقة المتلوّنة للعيون (moires). وكان تجار الفرنج في بيروت اذا استحضروا حاجتهم من الحرائر جعلوها رُزماً وارسلوها الى صيدا امّا بحرًا اذا امنوا عليها واما برًّا اذا تخوّفوا القرصان ثم تُرسل من ثمّ الى فرنسة وكان تجارهم في بعض السنين يبتاعون منها ما يساوي ٤٠٠,٠٠٠ دينار

وكان لصيدا ايضاً معامل حريريّة واهلها يغرسون حول مدينتهم اشجار

التوت الّا ان حريرهم كان من جنس ادنى. وقد روى مُرسلان كبوشيان في صيدا، في القرن السادس عشر ان حرير بيروت كان يُعدّ كالصنف الاجود ويليه حرير طرابلس ثم حرير صيدا. على ان الحرير الصيداوي مع دناءة جنسه كان كثير الرواج ولا يكفي لكلّ الطلبيّات كما افاد الكاثليك دارفيو

وكان لبيع الحرير في صيدا، وطرابلس وبيروت قيصريات يقصدها الباعة فتوزن فيها الشرانق وكل اصناف القزّ الخام او المغزول والمنسوج على اوزان رسمية. لكنّ السماسرة اخذوا مع توالي الزمان يطوفون القرى فيبتاعون محاصيل المواسم من الفلاحين ويجلبونها الى مدن السواحل. وبذلك ينجو اهل لبنان من الغرامات التي كان يفرضها عليهم عمّال الدولة عند نزولهم لبيع حرائرهم اما نقداً واما عيناً. وكان قناصل فرنسا قد جعلوا ضرائب على حرير تجارهم يقضونها منهم سنوياً وربما حصلت من جرّاء ذلك بينهم مشاحنات ودعاوي طويلة قضى فيها ملوك فرنسا

ولمّا كان القرن الثامن عشر زاد طمع حكّام الدولة العثمانيّة في تجار الحرير فاثقلوا عواتقهم بالضرائب حتى اعرض كثير منهم عن هذه التجارة الخاسرة فكسدت سوقها. ولم يعد الفرنسويّون يتسوقون خام الحرير من بلاد الشام وانّما اقتصروا فقط على ابتياع الانسجة الحريرية التي كان يحيكها اهل حلب ودمشق وطرابلس وحمص وحماة وبيروت كالزنانير والكفّيّات والاعبنة واجناس الاطلس والبروم والمخامل

واصحاب الاسفار الذين كتبوا في ذلك العهد بعد وصفهم لتجارة الحرير في انحاء الجبل والسواحل الشاميّة يبدون اسفهم على تقهقر هذه الصناعة ويعلّلون ذلك بقلّة اشجار التوت. واذا قال احد للاهلين: ما بالكم لا تغرسون اشجاراً جديدة؟ اجابوه: «أانت وحدك غريب في هذه البلاد؟ ألا تعلم انّنا اذا بنينا داراً او غرسنا غرساً بثّت الحكومة عاينا العيون وضربت علينا الضرائب لزعمها بانّنا من اصحاب الثروة. فاذا انكرنا ضربونا بالعصي على اخماص الاقدام (بالفلق) ربّما يبلصونا مالنا. واذا اقررنا به ضربونا ايضاً زاعمين انّنا اغنى ممّا صدقناهم»

وكما كسدت سوق الحرير الخام في انحاء الشام اخذت ايضاً صناعة نسجه وصبغه تتأخر شيئاً فشيئاً لسوء تصرّف العمّال. وكان الفرنج في تلك الاثناء قد حسّنوا معاملهم الحريريّة واخترعوا ادوات جديدة لنسج الاجواخ والاقمشة الحريريّة وضروب

الاكسية مع احكام صبغها حتى صاروا ينقلونها الى الشام ويبيعونها في مدنها. وقد اتسعت خصوصاً معاملات تجار ليون مع دمشق فباعوا في الفيحاء منسوجاتهم الحريرية

لكنَّ هذه الحرائر والمنسوجات الاوربيّة لم تنفق في غير المدن الكبرى فبقيت انحاء الدولة العثمانيّة تطلب مقطوعيات حريرها من دمشق وحمص وحماة وحلب وصيداء وصور ودير القمر الى اوائل القرن التاسع عشر حيث كثرت الحروب وساءت الاحوال وسقطت المعاملات فأُصيبت صناعة الحرير بضربة لازبة حتى ان مدينة بيروت سنة ١٨٦٠ لم يبقَ فيها نوّال واحد لنسج الحرير وكذلك كادت حرائر طرابلس وصيدا تتلاشى في ذلك العهد فصارت اثرًا بعد عين

لكنَّ المدن الداخليَّة لم تزل في حركتها الصناعيَّة فكان عدد النساجين الحريريَّة في دمشق ٣٠٠٠ وفي حلب ٦٠٠٠ اما لبنان فكان عدد انوالهِ ٥٠٠٠ منها ٤٠٠٠ في دير القمر و٥٠ في الزوق و٢٠ في زحلة وكانت مصنوعات حلب دون مصنوعات دمشق لكنَّ الاقبال على الاولى كان اعظم لتهاود اسعارها

وبعد حوادث السنة ١٨٦٠ اذ عاد السلام الى الشام استأنف ايضاً تجار الحرير مساعيهم في ترويج هذه الصناعة فبلغ عدد عمة مناسج الحرير سنة ١٨٧٠ في ولاية دمشق ٢٠,٠٠٠ وفي ولاية حلب ٣٠,٠٠٠ وازدهرت تلك الصناعة في حمص وحماة حتى ان عدد انوال حمص كان لا يقلّ عن ٥٠٠٠ وحماة عن ١٠٠٠ فبيعت منسوجاتها الحريريَّة في السنة بنحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك الثلث منها ينفق في سوريَّة والثلثان الآخران بيعا في بر الاناضول

على ان هذه النهضة الصناعية بين الوطنيين لم تثبت زمناً طويلًا بل رجعت القهقرى منذ ذاك الحين الى زمننا الحاضر وذلك لاسباب: منها الازمات المالية التي حصلت في مصر فصارت طلبيّات الحرير تقلّ سنة عن سنة. ومنها مزاحمة بعض المدن التركيَّة لتجارة الشام فان مدناً كثيرة كادرنة وبروسة ولاسيما عينتاب جعلت تنسج ضروب الحرائر ولم تزل دائرة اشغالها في اتساع حتى يومنا فانَّ عينتاب في عهدنا تشغل نيفاً و٣٠٠٠ نول

ومن اسباب تخلُّف صناعة الحرير ايضاً في زماننا شيوع الملابس الاوربية بدلًا من الثياب الشرقيَّة. فان اغنياء الشرقيين الذين كانوا يتباهون بلبس الحرائر والملابس

الفاخرة يفضّلون في الغالب الازياء الفرنجيّة مع بساطتها ورخص اسعارها

وزد على الاسباب السابقة مداومة الشرقيين على خطتهم القديمة في نسج الحرائر فلا يتسهم ان يصنعوا منها كميّات وافرة بينما ترى المعامل الاوربية تحسّن كل سنة ادواتها وتوسع نطاق اشغالها بحيث اضحت منسوجاتها ادقّ وامتن واجمل من مصنوعات الشام

بل دخلت في بلادنا الصناعة الاوربيّة مع طرائقها النسجية المستحدثة. وكان اوّل من انشأ معملاً للحرير في لبنان المسيو پرتاليس قبل سنة ١٨٤٠ فكان يشتري اقة الشرانق من ١١ الى ١٢ قرشاً ثم زادت بعد مدّة الى ان بلغت ٢٠ الى ٣٥ ق وبقي على مواصلة العمل وتوسيعه وتحسينه الى ان غلبت الصناعة الجديدة على الصناعة الجارية سابقاً في لبنان فما مرّ عليه ١٥ سنة حتى بلغ وزن المنسوجات المصنوعة على الزي الجديد ٩٠٠,٠٠٠ اقّة ولم ينسج على الطريقة القديمة سوى ٣٠٠,٠٠٠ اقّة منها ١٠٠,٠٠٠ اقّة لم تُنسج تماماً على الطريقة البلديّة بل على طريقة متوسّطة

وازدادت هذه الحركة بعد حوادث سنة ١٨٦٠ بهمة راهبات المحبة فانّ هؤلاء الفاضلات اذ انشأن الملاجئ لتربية الايتام وجدنَ في انشاء المعامل الحريريّة وسيلة لسدّ نفقات هذا المشروع الخيري. وكنّ في اوّل الامر يستعملنَ المناسج البلديّة فلمّا كانت السنة ١٨٦٢ استحضرن من ليون منسجاً بخارياً ذا عشرة انوال من صنف جاكار (Jacquard) فركّبهُ احد عمّال ليون وهو لا يزال ماشياً حتى اليوم وقوّتهُ المحرّكة تبلغ اربعة احصنة بخاريّة ويشتغل في تجهيز لوازمه نحو عشرة من اولاد اليتم تحت نظارة احدى الراهبات ويرافق هذه الاداة البخارية التي بها تُستحضَر خيوط الابريسم ادوات أخر لاسلاكها وتجهيز لحمتها ونسج سداها فيقوم على كل ذلك عددٌ من الايتام. وهناك اداة لرقامة الانسجة ثم ادوات غيرها لصبغ الحرير على الطرائق الجارية في معامل اوربة

امّا الحرير الخام فهو من اطيب الاصناف والراهبات يجلبنهُ في معاملهنّ الحريريّة في طرابلس حيث تحلّل بناتهنّ اليتيمات الشرانق التي يشترينها باسعار تتراوح بين ٣٦ فرنكاً الى ٤٠ في الاقة ويبلغ مجمل ما يخرج سنوياً من مناسج راهبات المحبة من ٣٠٠٠ الى ٥٠٠٠ متر وكل هذه الانسجة مجهزة على طريقة جاكار فيُقبل عليها

التجار من اهل الشام وغيرهم بكل رغبة . هذا الى اصناف أُخرى تُطلب منهنَّ ايضاً

ومِمَّا يساعد على نجاح هذه معامل الحرير عند الراهبات انَّ ايتامهنَّ اذا تعلموا فنَّ نسج الحرير على الطريقة الاوربيَّة يداومون على العمل سنين طويلة عندهنَّ اذ لا يجدون عنـد غيرهنَّ ربحاً لصناعتهم ولا تجهيزاً كتجهيز معاملهنَّ فيفضلون لزوم الشغل عند الراهبات

امَّا الكراخين الوطنيَّة فان تجهيزهـا غالباً على الزي القديم اي انها تدور على دواليب خشبيَّة قليلة الاتقان مختلفة الاحجام اكبرهـا الكـرواني ثم الدامورانى ثم البتروني . والشرانق تُحلَّل في مرجل كبير يُشعل تحتهُ الحطب فتبقى الحرارة على درجة واحدة

والحرير المستحضر في الكراخين السورية على صنفين صنف منهما فاخر يُدعى الاسكندراني ويُنزَل عادة على الطريقة الفرنجية وهذا الجنس تروج سوقهُ في اوربا وتغلو اسعارهُ حتى تُباع الاقة منهُ الى ٣٠٠ قرش . والصنف الآخر يستخرج من شرانق ادنى صنفاً كالملطخـة والمثقوبة والمزدوجة (douppions) فتُطبخ ثم تُندَف بآلة الحلاجة وتجهَّز منها شلل خيطان ينسجون منها اقمشة متهاودة الاسعار وربما خاطوها بالقطن . وثمن الاقة من الجنس الثاني يتراوح بين ١١٥ قرشاً الى حد ١٥٠

امَّا كميَّـة انسجة الحرير السنويَّة في بلاد الشام فتبلغ للصنف الاوَّل المعروف بالاسكندراني من ٣٥٠٠ اقة الى ٤٠٠٠ يباع اهل دمشق قسمها الاكبر اي ١٥٠٠ اقة ثم اهل حمص وحلب كلٌّ منهما ٥٠٠ اقة ثم حماة ٤٠٠ اقة . امَّا الصنف الثاني فتبلغ كميَّة مواسمهِ نحو ١٢,٠٠٠ اقة يُغزل نصفهُ تقريباً في بيروت . ولبنان والقسم الآخر يباع في بلاد الشام والاناضول والاستانة . امَّا مجموع ما يُغزل من الحرير في معامل الشام على اختلاف مصادرهِ كبروسة وتفليس والعجم والهند والصين ويابان فلا يقلّ في السنة عن ١٠٠,٠٠٠ اقة

واعلم ان النسوجات والمصنوعات الحريريَّة الشائعة في بلاد الشام كثيرة الانواع منها اسلاك الخياطة واصناف البريم والازرار والمناديل المخرَّمة والبانس والمشالح والاعبية التي يُباع الواحد منها من ٢٥ الى ٣٠ قرشاً اذا كان ساده ومن ١٢٠ الى

١٥٠ اذا كان منسوجاً بالقصب او الفضة ومنها الزنانير والعصائب واشكال البروم ومنسوجات السروج التي يبلغ مبيعها في دمشق ١٠٠,٠٠٠ فرنك سنوياً

وشاعت في حمص وحماة منذ نحو عشرين سنة الاقمشة المعروفة بالحميدية والمصرية والهندية والملس ويدخل في نسجها القطن الا صنف الملس الذي هو من الحرير الخالص فيباع الذراع من الاولى من ٤ الى ١٠ غروش والملس من ٨ الى ٢٠ غ

واشتهرت زوق ميكائيل بمنسوجاتها المعروفة باسمها (وقد مرّ في المشرق فصل في وصفها ٤ : ٤٤١) فيصطنعون الامتعة البديعة كالستور والبدايات والوسائد والمصادغ فيرسمون عليها الرسوم وينسجونها بالمجم ولهم اعمال مذهلة بدقّة الوشي والتطريز والتبرقش اكسبت اصحابها شهرة واسعة حتى انهم جاروا بتطريزهم الصور الشمسيّة والتصاوير اليدوية

ومن مصنوعات الحرير الشائعة في بلاد الشام الكفيّات المختلفة الكبر والتركيب يصنعون منها في السنة نحو مئة الف فيباع ما كان منها حريرًا خالصاً الى حد ١١ فرنكاً امّا المتزجة بالاقطان فيباع فرنكاً واحدًا الى فرنكين

ولا تزال دمشق غالبة على سواها بالمنسوجات الحريريّة القطنيّة المطرّزة بالنقوش والزهور او المزركشة بخيوط الفضة والذهب تُباع القطعة منها (في طول ستة او سبعة امتار وعرض ٧٠ سنتي) من ١٦ الى ٢٦ فرنكاً ويصدر من هذا الصنف نحو ٢٠٠,٠٠٠ من دمشق وحدها

امّا الصنف المعروف بالبروم فاهل مصر يبتاعون منه في الشام الى ٩٠,٠٠٠ قطعة تبلغ القطعة من ١٢ الى ١٦ مترًا في عرض ٥٠ سنتي والقطعة تساوي خمسة فرنكات الى سبعة والمصريون يفضّلون هذا الصنف لخفته

ومنها الأَجَات وهي الانسجة ذات الالوان المخطّطة يبلغ طولها من خمسة امتار ونصف وعرضها من ٥٠ الى ٥٢ سنتي على اختلاف اسعارها وقدر ما يدخلها من القطن فتباع القطعة من خمسة فرنكات ونصف الى ١٨ فرنكاً

يُضاف الى تلك المصنوعات الكُريشات التي يُنسج منها ١٥٠٠٠ في السنة تُباع الكريشة على حسب وزنها واكثر من يستعملها اهل حوران. ثم الملاءات تُغطي بها النساء رؤوسهنّ وتُباع الملاءة من ١٨ الى ٤٥ فرنكاً ويُنسج منها في الشام ١٤٠٠٠

قطعة تتراوح القطعة بين ٤ الى ٦ امتار طولًا في عرض ٦٨ سنتي. ثم الشالات التي تتألف فيها اهل الشام شالات الهند والعجم ثم غلبوهم في تلوين اشكالها. ويصنع منها في أيامنا نحو ٦٠٠٠ قطعة وثمن القطعة من ٦ الى ١٠ فرنكات

واذا حسبت مجموع المنسوجات التي تُصطنع في الشام في عهدنا وجدت ان قيمتها لا تتجاوز في السنة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من الفرنكات . ولعلّ هذه الاثمان تهبط ايضاً اذا بقيت سوريّة على طرائقها النسجية القديمة

ابن وائل

مأساة تاريخيّة نثريّة ذات ثلاثة فصول يتخلّلها شعر جاهلي

بقلم الاب شرل ابيلا اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني

يمثل المرسح غرفةً في حصن لبني بكر

المشهد الاوّل

الهجرس وحده

نشيد

اظلم الكونُ ووافانا القتامْ وتوارى النورُ في جنح الظلامْ
بعدكم يا والدي عيشي حرامْ وعلى الدنيا ومن فيها السلامْ
والدي كالجسر اضحى كبدي منذ نأيتم عن حمانا يا همامْ
كيف لا ابكي وانتم سندي في قبودٍ عرضةً لابن اللئامْ
كيف لا ابكي وبكرٌ قهرتْ تغلبُ السوءة عليها انتصرتْ
كم رجالٍ بكرُنا قد خبرتْ يا لبكرٍ يا لآل الانتقامْ

الهجرس (بعد النشيد)

اهاجَ قذاءُ عيني الاذكارْ هُدوًّا فالدموعُ لها انحدارْ
وصارَ الليلُ مشتملًا علينا كأنَّ الليلَ ليس لهُ نهارْ
وبتُّ أُراقبُ الجوزاءَ حتى تقاربَ من اوائلها انحدارْ